

< صناعة الأوهام بالوهن >

العبيد والاستعباد الاجتماعي

أفيقوا... ففي الأوهام قيدٌ مُقنَّعٌ

يُزيِّنُ حتى يُستساعَ ويُدَسَّعُ

ومن يَرتضي الوهنَ اختيارًا لعمره.

يُشيِّدُ سجنًا... ثم فيه يودَّعُ

□

في عمق المجتمعات، لا تُصنع القيود دائمًا من حديد، بل كثيرًا ما تُنسج من وعودٍ ناعمة، ومن كلماتٍ منمّقة، ومن آمالٍ يُراد لها أن تكون طُعمًا لا طريقًا. هنا تبدأ صناعة الأوهام بالوهن؛ حيث يُعاد تشكيل الإنسان لا بالقوة، بل بالإقناع المضلل، لا بالقهر المباشر، بل بإقناعه أن القيد خلاص، وأن التنازل حكمة، وأن الصمت نجاة.

الاستعباد الاجتماعي ليس مشهدًا صريحًا دائمًا، بل هو منظومة متداخلة من المصالح والتواطؤات، تُلبس الظلم ثوب الفضيلة، وتُعيد تعريف الاستغلال على أنه فرصة.

في علاقات الزواج والخطوبة، يتحول الوعد من ميثاق شرف إلى أداة ابتزاز، ومن نية بناء إلى وسيلة استزاق، فيُستنزف الشعور وتُبتز الكرامة باسم المستقبل.

وفي سوق العمل، تُرفع شعارات الطموح، بينما تُمارس أنماط خفية من الإقطاع الحديث، حيث يُستغل الشباب بأحلامهم، ويؤجّل إنصافهم بحجة "القادم أفضل"، حتى يصبح القادم سرابًا دائمًا.

أما الوعود الكبرى-

السعادة، الأمان، المكانة- فتُستخدم كأدوات تعبئة، يُساق بها الناس نحو الاصطفاف،

لا وعيًا بل تبعية، لا قناعة بل انجرافًا. وحين تُختزل قيمة الإنسان في تصفيق الجماهير، تتحول المجتمعات إلى مسارح، ويغدو الأفراد ممثلين في أدوار لم يختاروها.

الأخطر من ذلك، حين تُستغل القيم العليا-كالخير والرحمة وصلة القربى-لتبرير الاستحواذ، وتعليق الحقوق، وإطالة أمد السيطرة على ما لا يُملك. هنا، ينقلب النبل إلى أداة، ويُستغل الدين والأخلاق كغطاء لتمير أشكال من "الاستعباد الناعم" الذي لا يُرى، لكنه يُعاش.

في هذا المشهد، يعيش البعض "الميت الحي"، مسلوب الإرادة، محاصر الصوت، سواء كان مواطنًا أو وافدًا، رجلاً أو امرأة. تُصادر حرّيته باسم الحماية، ويُكتم رأيه باسم المصلحة، حتى يذبل داخليًا قبل أن يغادر جسديًا.

وحين يمضي، يتجمهر الناس حول نعشه، لا لردِّ حقِّ ضائع، بل لطقسٍ اجتماعي يبرئ الضمير دون أن يُملح الخلل.

إنها تراكمات من التناقضات، تُحفظ في ملفات مغبرة، تُؤجّل مواجهتها، وتُدار بالصمت، حتى تصبح جزءًا من "الطبيعي". لكن الحقيقة أن ما يُعتاد ليس بالضرورة حقًا، وما يُتوارث ليس دائمًا عدلًا.

فمتى يستيقظ النائمون؟

الاستيقاظ لا يعني الثورة الصاخبة، بل الوعي الهادئ:

أن يدرك الإنسان قيمة ذاته، أن يميّز بين الوعد الحقيقي والوهمي، أن يرفض أن يكون أداة في يد غيره، أو ضحية صامتة لمعادلات مختلة.

وسداد الحقوق لا يبدأ بالمحاكم فقط، بل يبدأ بالضمير:

أن نُعيد تعريف القوة بأنها عدل، والمكانة بأنها نزاهة، والنجاح بأنه إنصاف.

فمتى نسدد بعضنا بعضًا؟

حين نفهم أن الحقوق ليست أرقامًا مؤجلة، بل أرواحًا مُعلقة، وأن كل تأخير في ردّها هو زيادة في وهن المجتمع كله.

□

إذا الحقُّ نامَ على أكتافِ صمتنا

تَكَثَّرَ ظلمٌ واستطالَ التَّوَجُّعُ

فلا تُحيوا الأوهامَ فينا تهاونًا

فأولُّ وعيٍ... أن نفيقَ ونَمذِّعُ